

جدلية التصوّف والسياسة عند الأمير عبد القادر

بغداد مريم¹

إشراف: اد بوعلّي نابي²

مدخل:

تولّى النبي محمد صلى الله عليه وسلم تسيير أفراد المجتمع الإسلامي الأوّل دينيا وسياسيا، حيث كانوا يلجؤون إليه ليوضح لهم تعاليم دينهم الجديد، وفي حالة افتقاره الإجابة صلى الله عليه وسلم ينتظر الإجابة بواسطة الوحي الإلهي، و بعد وفاته صلى الله عليه وسلم طُرحت إشكالات جديدة في المجتمع الإسلامي وكان المنقض المسؤول على حلّها قد مات، ومن ثمّ بدأ الخلاف بين الفرق الإسلامية. ونتيجة الصراع الداخلي بين الفرق انحطت الحضارة وعرف المجتمع الإسلامي أزمة تخلف، وهذا الواقع المتأزم أدّى ببعض المفكرين إلى التعالي عنه راغبين البحث عن الحقيقة في العالم الآخر الذي الطريق الموصل إليه هو القلب الزّاهد النقي المتبع لكتاب الله وسنة رسوله ومنهم الغزالي، ابن عربي والأمير عبد القادر.

اشتغل الأمير عبد القادر الصّوفي على تأويل الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معتمدا في ذلك على الإلهام القلبي كطريق للكشف عن الأسرار القرآنية وكتابه المواقف يشهد على ذلك، ولا يمكننا أن ننسى أنّ عبد القادر الجزائري هو كذلك أمير الدولة الجزائرية وقائد المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، لكن إذا كان تأويل القرآن عن طريق القلب منوطا بالتخلي عن الدنيا وشهواتها والسياسة كثيرا ما تكون مرتبطة بالأمور الدنيوية وتحقيق المصالح الخاصة فالى أي مدى تمكن الأمير من الجمع بينهما ؟

الأمير والتأويل الصوفي:

إذا كان الأمير شيخا صوفيا وعارفا فإنّه قد اعتمد على القلب لكشف الألغاز والرموز القرآنية، أي أنّ القناة التي انتهجها "في تلقّي أو بثّ رسائله هي الحدس القلبي، إذ الحدس النوراني هو تلك القدرة التي تتوقّر عليها نفوس نجبية، فتلتقط الحقائق مُبَادَهِة وتعيها مباشرة وبلا كبير تركيز، لأنّ النفس الحادِسة تجد نفسها على أهبة لتلمس المعاني العلوية من وراء الغشاوة وتحت البشرة، فهي تتحسّس عن بعد وتستهدي الطريق إلى مدارك لا يتوقّعها الآخرون"³.

إذن لقد وهب الله الأمير بالملكة القلبية الحدسية التي بها تمكّن من مشاهدة وفهم ما هو مستور عن أغلب الناس، إذ هي قدرة لا تُوهب إلّا للقلوب العابدة النقية الطاهرة.

1. باحثة في قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر

2

1. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر العرفاني، دار القدس، الجزائر، ط1، 2011، ص.46

"الأمير الذي نشأ مالكيًا سيظل يقرأ القرآن بعين التواتر والجماعة والاتباع، لكن روحه التي كانت تحفل بينابيع من الاستعداد والتهَيُّؤ، قد وجدت نفسها في تلك المرحلة من العمر تتعطف بعلاقتها الاستيعابية مع القرآن فتتخرط في طريق الباطن، وتتأول المعطى القرآني برؤية أخرى أوسع إحياء وأكثر احتفالاً بالأنطاف والإضاءة الخارجة عن المتداول المألوف"¹، انتقل الأمير من القراءة العادية للقرآن المحترمة لأحكام القراءة والفهم الحرفي إلى القراءة الصوفية العميقة والفهم الباطني.

الأمير والسياسة:

لم يجاهد "الأمير عبد القادر" ولم يتولّى أمر قيادة الجيش إلّا بعد أن قرأ عن الجهاد وفهم معناه و ضوابطه في الدين الإسلامي، هذا الأخير الذي يؤكّد على أنّه "ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد، ولا الرغبة في الأموال، وإنّما المقصود به دفع الضرر عن الأمل والظلم ورفع كلمة الإسلام ولو تُوهّم حصول ذلك من غير قتال ما وجد القتال"².

وهذا القول ربّما هو الذي يبرّر حادثة انسحاب الأمير ورفضه الدخول في حرب قتالية مع المستعمر الفرنسي، وهذا القرار لا يعني ضعفه وقلة رجولته وشجاعته، وإنّما هو إدراك واعٍ بأنّ الأمر سيؤدّي إلى خسائر لأنّ قوّة الجزائريين أضعف بكثير من قوّة المستعمر. **التصوّف والسياسة:** التصوف المعتدل لا يعني الانعزال عن المجتمع والدنيا بما فيها، فالإنسان كائن عاقل عليه أن يهتم بحياته الدنيوية ويحسن تسييرها كأنّه يعيش أبداً، وأن يهتمّ بآخريته ويجتهد بالأعمال الصالحة كأنّه يموت غداً وهذا ما تميّز به الأمير، "فتصوّف الأمير عبد القادر ليس ذلك السلوك المنقشّف الذي يفرض في أساليب الزّهد والحرمان، وإنّما هو تصوّف راقٍ مستوحى في أفكاره وتصوّراته من الفلسفة الأكبرية، إلّا أنّها فلسفة تنبثق من روح النبوة حيث تتوخّى في سلوكها الاعتدال والتوازن، وتركن في النّظر والعمل إلى الأصول الشرعيّة وهما الكتاب والسنة"³.

كان الأمير رجلاً صوفياً وسياسياً وشهد له بذلك حتّى أعداؤه الأجانب، حيث "كان يلقّب عند المؤرّخين الأوروبيين بالإمام العسكري أو الإمام المتصوّف، وكان شعاره العلم والعمل والإيمان وقد غدّرت به فرنسا وعوض أن تذهب إلى المشرق العربي ذهبت به إلى سجون فرنسا... ومع ذلك لم يستسلم وتفرّغ للعبادة والكتابة والتّدريس... بقي الأمير متصوّفاً حتّى في منفاه وإلى وفاته"⁴.

1. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، دار الغرب، وهران، ط3، 2009، ص 95.

2. الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق، دار الفكر، سوريا، ط1، 2000، ص137.

1. ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف المصلح، منشورات دار الأديب، وهران، د(ط،س)، ص50.

2. محمّد الطاهر عزوي، تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3، ص 92.

تصوّف الأمير لم ينحصر "في لباس الصّوف.... وإظهار الزّهد والتفرّغ للعبادة من أجل العبادة كالزّهية التي تعتزل في الدّير دون المشاركة في الحياة العمليّة بالتأثير والتأثر... وهو أوّل من جمع بين الجهاد والتصوّف في الجزائر وفي السّجن وفي المنفى ... وكان قائدا حرييا في جهاده وكان شعبيا في تصرّفاته وشهد له الأعداء بالعدل، وكان يبني تصوّفه على العلم والكتاب والسّنة والتّربية والأخلاق حتى انتشر العلم في عهده وكان يشجّع على حفظ الكتب...حتى في مرحلة الجهاد"¹.

إنّ تصوّف الأمير لا ينحصر في لبس الخرقة والانعزال في الجبال بل إنّ تصوّفه جمع فيه بين العلم . المعرفة الصّوفيّة . والعمل .

جمع الأمير بين الجهاد والتصوّف، "وقد دلّ التصوّف عند البعض على الأقلّ هروب من الواقع ومصادرة للحرية وقهر للإرادة الإنسانيّة، غير أنّ التصوّف عند الأمير عبد القادر كان مؤسّسا لوعي أنتج حالة من الرّفص للوضع القائم لم تتوقّف عند الشّكوى والتضاييق بل تذهب إلى حدّ التمرد وكان الجهاد والثّورة، فإذا بالتصوّف الذي عُرف عند البعض بالسّكونية حراكا ما بعده حراك"².

من مظاهر التصوّف عند الكثير من المتصوّفة: الهروب من واقعهم الاجتماعيّ الفاسد والمريض إلى حياة العزلة والتّوحد والتعبّد، لكن الأمير لم يتوقّف عند هذا الأمر بل واجه واقعه المتأزّم وحاول إصلاحه وساعده في ذلك إلهامه الصوفي.

إنّ الأمير تمكّن من التسوية بين كفتين ذات اتّجاهين مختلفين، "كفّة القيم الإسلاميّة الرّاقية التي يمثّلها تصوّف الأمير عبد القادر، وكفّة الأوضاع المأساويّة التي تعانيها الأمّة الإسلاميّة بالجزائر"³، فقد جمع بين المجال الروحي والسياسي لأنّه لم يتعامل مع السياسة على أنّها وسيلة لخدمة مصالحه وزيادة ثروته."كان للأمير عبد القادر الإيمان والعلم الضروريين ليعلن نفسه إماما ولم يفعل، وكان لديه القوّة والقدرة والنفوذ ليعلن نفسه سلطانا ولم يفعل، كما أنّه لم يكن من جهة أخرى لا إقطاعيا ولا متعصّبا، لقد انكبّ في صخب الحرب وعنفها لتشييد دولة حديثة قائمة على العلم والقيم الإنسانيّة وهو قائد مستنير لمجتمع متضامن مع نفسه غير محبّ للحرب ومتفتّح على العالم ذلك هو مشروع مجتمعه الطموح"⁴.

فمشروع المجاهد "عبد القادر" ليس أن يكون ديكتاتوريّا طاغية يفرض سيطرة دينيّة وسياسيّة، وإنّما كان يسعى من خلال تخطيطاته العسكريّة والفلسفيّة لتوجيه أفراد مجتمعه بمشاورتهم ومعاونتهم لاسترجاع

1. محمّد الطاهر عزوي، تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3، ص. 87، 88، 89.

2. بلحاج صالح حمزة، منهج التّغيير ومنظومة القيم، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3، ص. 129.

1. ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف والمصلح، مرجع سابق، ص. 140.

2. عمار بلخوجة، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، تر: حبيشيني، منشورات ألفا قصر المعارض، الجزائر، ط1،

د(ط، س)، ص. 136.

سيادتهم المستلبة من الاستعمار، بغية إنشاء الدولة الجزائرية الحديثة، الحرّة والمستقلّة والتي يتمتع أفرادها بقيم أخلاقية، إسلامية وإنسانية.

كان هدف الأمير من تولّيه أمر الإمارة هو تأسيس الدولة الإسلامية الحديثة الحرّة، إذ لم يكن الأمير يتحرّك كزعيم سياسي أو قومي من أجل استزراع نظام اجتماعي مُستورد يريد أن يُكيّف الأهالي على الأخذ به وتنميط أحوالهم الحيائيّة والروحية عليه، ولكنّه صدع فيهم من أوّل لحظة بأنّ مرجعيّته ستكون الكتاب والسنة وأنّ شريعته هي شريعة القرآن، وبذلك حسم في اختيار العقيدة التي سيسير المجتمع على وفقها....¹. وقد اختار الأمير الدّين الإسلامي كمنهج لتسيير أفراد المجتمع في مُختلف الأمور لأنّه هو دين هذه الأمّة ومرجعيتها، ولم يلجأ إلى مبادئ سياسية أجنبيّة غريبة عن تكوينه هذا المجتمع. إنّ الأمير لم يستغلّ السياسة لمصالحه، إذ اعتمد في تسييره لمجتمعه على المبادئ الدينية والقانونية لا على الهوى، وهذا ما يؤكّده قضية إقصاء أخيه عن الحكم " فلقد عزل أخاه سيدي مصطفى من منصب خليفة المديّة بسبب سلوكه السيئ وعيّن مكانه البركاني...، وفي هذا دليل على أنّ الأمير لم يكن يُفاضل أقاربه إطلاقاً حين يقتضي الأمر فرض النظام والعدالة"²، فليس من العيب أن يُشارك الأمير أقاربه المؤهلين إذا اقتضى الأمر تولّي الأمور السياسية في الحكم، وليس من العيب أيضاً فصلهم إذا لم يلتزموا بمسؤولياتهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1) المراجع بالعربية:

- 1) الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق، دار الفكر، سوريا، ط1، 2000.
- 2) عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي. قراءة في الرّمز والريادة.، دار الغرب، وهران، ط1، 2009.
- 3) عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر العرفاني. رصد لتجربة الإسراء في أقاليم الرّوح.، دار القدس العربي، الجزائر، ط1، 2011.
- 4) عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر. مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني، دار الغرب، وهران، ط3، 2009.
- 5) عمار بلخوجة، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، تر: حبيش شيني، منشورات ألفا قصر المعارض، الجزائر، ط1، د(ط)، س).

6) ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف والمصلح، منشورات دار الأديب، وهران، د(ط،س).

2) المجالات :

- 1) محمّد الطاهر عزوي، تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3.

1. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، دار الغرب، وهران، ط2009، 1، ص165.

2. عمار بلخوجة، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، مرجع سابق، ص 127.